



رضي الله عنها

الصابرة العابدة

ابراهيم محمد حسن الجمل

دار الفضيلة

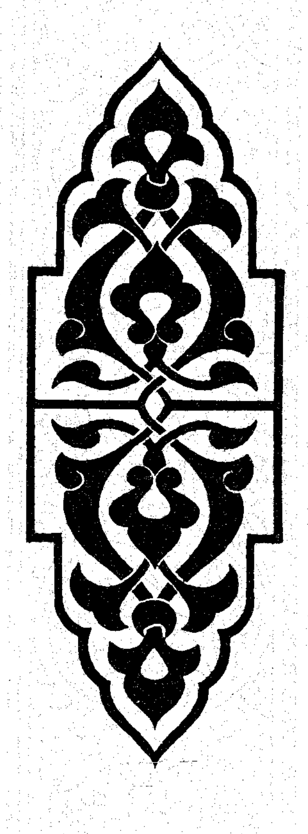
بسم الله الرحمن الرحيم

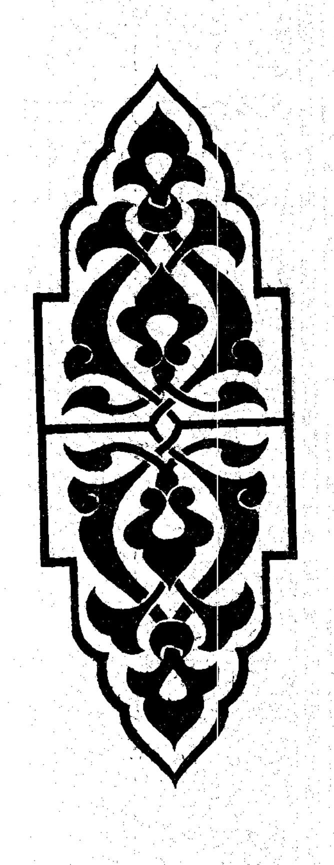
أُمُّ كُلْثُوم (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)

السَّيِّدَةُ أُمُّ كُلْثُوم ثَالِثَةُ بَنَاتِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ حَمَلَتْ بِهَا السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ بَعْدَ رُقَيَّة (رَضِيَ الله عَنْهُمَا) فَانْضَمَّتْ إِلَى أُخْتَيهَا زَيْنَب وَرُقَيَّة (رَضِيَ الله عَنهُنَّ) وَفَتَحَتْ عَيْنَيهَا عَلَيْهِمَا، فَكَانَتَا سَعِيدَتَيْنِ بِهَا، تَقُومُ مِنْ نَوْمِهَا فَتُسَرُّ بِرُؤْيَتِهِمَا، يَسِيرَانِ خَلْفَهَا، وَهِيَ تَحْبُو أَمَامَهُمَا، يُدَاعِبَانِهَا، وَيَجْرِيَانِ وَرَاءَهَا، وَهِيَ سَعِيدَةٌ بِهِمَا.

ثُمَّ نَطَقَتْ باسْمِ الأُمِّ الحَنُونِ، فَزَادَتْ مِنَ الفَرْحَةِ، وَأَتْبَعَتْهَا بِنُطْقِ اسْمِ الأَبِ، فَكَانَ أَبُوهَا سَعِيداً فَرِحاً يُنَاجِيهَا وَيُنَادِيهَا مِنْ بَيْنِ أُخْتَيهَا، فَيُنْصِتُ الجَمِيعُ لَهَا، وَتُقَلِّدُهَا أُخْتَاهَا وَهِيَ تَجْرِي، فَتَضْحَكُ فَرِحَةً مَسْرُورَةً.

وَكَمْ دَعَا لَهَا الأَبُ العَظِيمُ وَوَفَّى! وَسَارَتْ بِهَا الحَيَاةُ، وَهِيَ تَلْهُو وَتَلْعَبُ مَعَ أُخْتَيهَا، وَتَمُرُّ بِهَا الأَيَّامُ سَاعَةً وَرَاءَ سَاعَةٍ، وَيَوْماً وَرَاءَ يَوْمٍ، وَشَهْراً وَرَاءَ شَهْرٍ، ثُمَّ سَنَةً وَرَاءَ سَنَةٍ، إِلَى أَنْ تَجَاوَزَتِ العَاشِرَةَ، فَكَانَتْ تَرَى فِي أُخْتِهَا رُقَيَّةَ (رَضِيَ الله عنهَا) مَصْدَراً قَوِيًّا لِلْقُدْوَةِ الطَّيِّبَةِ فِي خَيْرِ الفِعَالِ.





كَانَتْ رُقَيَّةُ (رَضِىَ الله عنهَا) تَكْبُرُهَا بِمَا لَا يَزِيدُ عَلَى سَنَتَيْنِ ، فَلَا عَجَبَ أَنْ تَجْعَلَهَا مَصْدَراً تَرْجِعُ إِلَيْهَا فِى مُعْظَمِ أُمُورِهَا ... ثُمَّ وَجَدَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ أَنَّ رُقَيَّةَ (رَضِىَ الله عنهُما) تَسْتَعِدُّ لِتَتْرُكَ بَيْتَ أَبِيهَا وَأُمِّهَا ، وَأَنَّهَا لَن تَتْرُكَ هَذَا البَيْتَ وَحْدَهَا ، وَإِنَّمَا سَتَكُونُ مَعَهَا ...

ثُمَّ قَالَتْ تُخَاطِبُ أُخْتَهَا : سَنَتْرُكُ هَذَا البَيْتَ ، وَإِلَى أَيْنَ يَا رُقَيَّةُ ؟

قَالَتْ رُقَيَّةُ (رَضِىَ الله عنهَا) : لَقَد خَطَبَنِى عُتْبَةُ ابنُ جَدِّنَا عَبْدِ العُزَّى ، وَخَطَبَكِ أَخُوهُ عُتَيْبَةُ ، وَسَنَذْهَبُ سَوِيًّا أَنَا وَأَنْتِ إِلَى البَيْتِ الَّذِى يَعِيشَانِ فِيهِ ، وَسَوْفَ نَعِيشُ مَعَهُمَا ، وَهَذَا مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الجَمِيع مِنْ بنى هَاشم .

فِى بَيْتِ عُتَيْبَة

وَصَلَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ مَعَ أُخْتِهَا رُقَيَّةَ (رَضِىَ الله عنهُما) إِلَى بَيْتِ عُتَيْبَةَ وَعُتْبَةَ وَوَالِدِهِمَا عَبْدِ العُزَّى وَوَالِدَتِهِمَا أُمِّ جَمِيلٍ .

جَلَسَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِجِوَارِ أُخْتِهَا رُقَيَّةَ (رَضِىَ الله عنهُما) ، لَا تَدْرِى مَاذَا تَعْمَلُ ، ثُمَّ أَشَارَتْ أُخْتُهَا إِلَى الحُجْرَةِ الَّتِى سَتَنَامُ فِيهَا ... ، اسْتَمَعَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ إِلَى صَوْتِ أُمِّ جَمِيلٍ تَدْعُوهَا إِلَى التَّخَلِّى عَنِ الخَجَلِ ، وَتُشَجِّعُهَا عَلَى أَن تَكُونَ مَعَ زَوْجِهَا ، وَتَطْلُبُ مِنهَا أَن تَطْمَئِنَّ ، فَهِىَ فِى بَيْتِهَا مَعَ أَهْلِهَا وَأُخْتِهَا .

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ ، وَفَجْأَةً دَعَتْ خَدِيجَةُ ابْنَتَيْهَا رُقَيَّةَ وَأُمَّ كُلْثُومٍ إِلَى بَيْتِهَا ، فَوَجَدَا فِى انْتظَارِهِمَا أُخْتَهُمَا زَيْنَبَ وَالصَّغِيرَةَ فَاطِمَةَ (رَضِىَ الله عَنهُنَّ) .

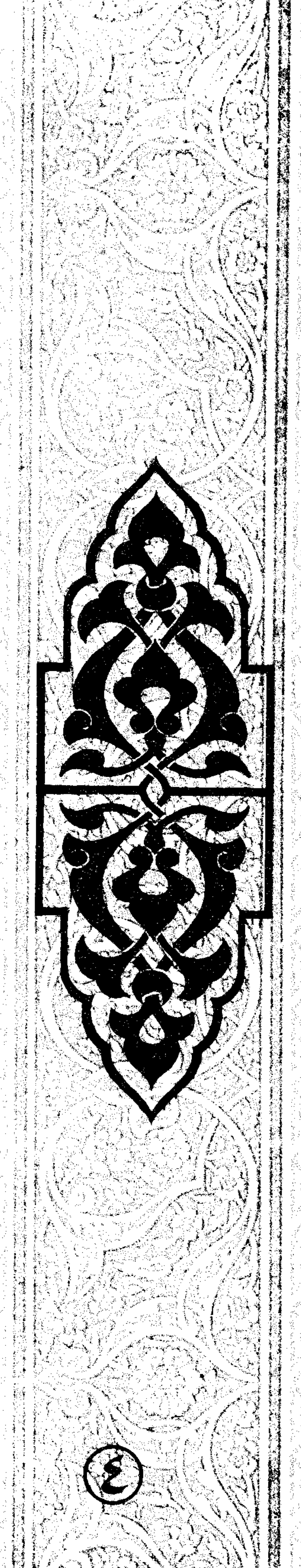
ثُمَّ تَكَلَّمَتِ السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) فَقَالَتْ لَهُنَّ : إنَّ وَالِدَكُنَّ قَد أُوحىَ إِلَيْهِ مِن رَبِّ العَالَمِينَ ، وَإِنَّهُ أُرْسِلَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً بِدِينٍ جَدِيدٍ (هُوَ الإِسْلاَمُ) وَأَمَرَهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِنَشْرِ هَذَا الدِّين عَلَى النَّاسِ جميعاً ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَن نَكُونَ أَوَّلَ المُصَدِّقِينَ بِهِ .

فَرَدَّدْنَ جميعاً ، نَعمْ يَا أُمَّاهُ ، نَحْنُ أَوَّلُ المُصَدِّقِينَ بِهِ ، وَنَشْهَدُ : « أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ ﷺ » .

ثُمَّ أَوْصَتْهُنَّ بِأَنَّ هَذَا الأَمْر سِرٌّ إِلَى أَن يَأْذَنَ الله لِرَسُولِهِ ﷺ بِنَشْرِهِ عَلَى النَّاسِ .

رَجَعَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَى بَيْتِ زَوْجِهَا مَا عَدَا الصَّغِيرَةَ فَاطِمَةَ (رَضِىَ الله عنهَا) ، فَقَد ظَلَّتْ فِى بَيْتِ أَبِيهَا وَأُمِّهَا .

وَرَاحَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ مَعَ أُخْتِهَا (رَضِىَ الله عنهُما) يُرَاقِبَانِ أَخْبَار الدَّعْوَةِ فِى مُحِيطِ مَكَّةَ ، وَهِىَ لَا تَزَالُ فِى أَوَّلِ أَمْرِهَا سِرِّيَّةً ، فَمَنْ أَرَادَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهَا ، العِبَادَة ، لَا يَظْهَرُ فِى مَجَامِع قُرَيْشٍ العَامَّةِ خَوْفاً مِن تَعَصُّبِ قُرَيْشٍ لِدِينِهِمْ الَّذِى هُمْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ أَرَادَ العِبَادَةَ وَالصَّلَاة عَلَى مَبَادئِ الدِّينِ الجَدِيدِ ، يَعْبُدُ الله وَيُصَلِّى مُتَخَفِّياً ، وَمَعَ هَذَا الاسْتِخْفَاءِ لَمْ يَسْلَم المُسْلِمُونَ مِنْ





إيذاءِ المُشْرِكِينَ وَلَا مِمَّن تَنكَّرَ لَهُم ، وَالعَيْبَ عَلَيهِمْ ، وَلَكِنَّ الأَمْرَ أَخَذَ يَتَسَرَّبُ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ ، وَلَمْ يَكُنْ أَهْلُ مَكَّةَ مِنَ المُشْرِكِينَ يَعْبؤونَ بالدَّعْوَةِ وَمَا يَدْعُوهُم إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ بنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ ، وَيَقُولُونَ : لَن يَزِيدَ ابنُ عَبْدِ اللهِ عَلَى حَدِيثِ الرُّهْبَانِ وَالحُكَمَاءِ أَمْثَالِ قَسِّ ابنِ سَاعِدَةَ ، وَوَرَقَةَ بن نَوْفَلٍ وَغَيْرِهِمَا ، وَإِنَّ النَّاسَ عَائِدُونَ لَا مَحَالَةَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ ، وَسَتَكُونُ الأَصْنَامُ آخِرَ الأَمْرِ صَاحِبَةَ الغَلَبَةِ .

الدِّينُ الجَدِيدُ

مَكَثَ المُسْلِمُونَ عَلَى هَذِهِ السِّرِّيَّةِ وَقْتاً طَالَ أَوْ قَصُرَ، وَأُمُّ كُلْثُومٍ وَأُخْتُهَا (رَضِىَ اللهُ عنهما) لَا يَتفوَّهَانِ بِشَىءٍ ، وَلَا تَتَحَدَّثُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا فِى هَذَا الأَمْرِ أَمَامَ زَوْجِهَا ، إِلَى أَن أَمَرَ المَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَبْدَهُ مُحَمَّداً ﷺ بِتَبْلِيغِ القَوْمِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تِجَاهَ هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، وَلَا يَخَافُ مِنَ المُشْرِكِينَ ، وَلَا يَكْتُمُ عَنْهُمْ شَيْئاً فِي وَاقِعِ الأَمْرِ وَحَقِيقَتِهِ ، وَأَنَّ مَا يُصِيبُهُ مِنْ أذى مَا هُوَ إِلَّا رَفْعٌ لِمَكَانَتِهِ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ :

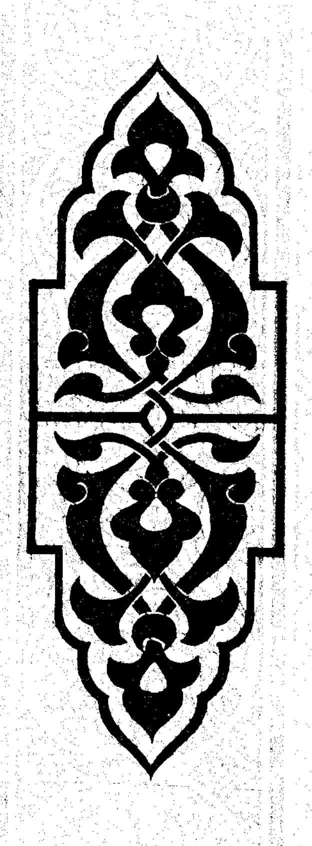
﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾(١).

---

(١) سورة المائدة : الآية (٦٧) .

فَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَرهُ بِالْجَهْرِ بالدَّعْوَةِ ، وَلَا يَلْتَفِتْ إِلَى مَا يَفْعَلُهُ الْمُشْرِكُونَ ، وَلَا يَعْبَأُ بِمَا يَقُولُونَ :

﴿ وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾(١) .



الأَهْلُ وَالأَقَارِبُ

لَقَد قَابَلَ الْمُشْرِكُونَ مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالسُّخْرِيَةِ وَالاسْتِهْزَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ .

ثُمَّ تَلَى الأَمْرَ بِالإِعْلَان ، إِنْذَارُ الأَهْلِ وَالأَقَارِبِ ، وَتَخْوِيفُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ الشَّدِيدِ ، وَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَن يَقُولَ لَهُمْ ذَلِكَ ، وَيَبْرأ مِن قَوْلِهِمْ وَعَمَلِهِمْ ، فَاللهُ نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ ، لَقَد نَزَلَ عَلَيْهِ ﷺ قَولُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : **﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾**(٢) .

لَقَد أَصْبَحَتْ مَكَّةُ كُلُّهَا تَعْرِفُ أَمْرَ هَذَا الدِّين ، وَتَعْرِفُ جَيِّداً مَا يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ ،

---

(١) سورة الحجر : الآيات (٨٩ - ٩٦) .

(٢) سورة الشعراء : الآية (٢١٤ - ٢١٦) .

وَتَعْرِفُ أَصْحَابَهُ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَآمَنُوا بِهِ ، فَلَيْسَ فِى مَكَّةَ بَيْتٌ إِلَّا وَيَتَحَدَّثُ أَهْلُهُ عَنِ الدَّعْوَةِ الجَدِيدَةِ .

ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ عَلَى الصَّفَا ، ثُمَّ نَادَى قَائِلًا : يَا صَبَاحَاهُ ...!

فَقَالَ القَوْمُ : مَنْ هَذَا ...؟

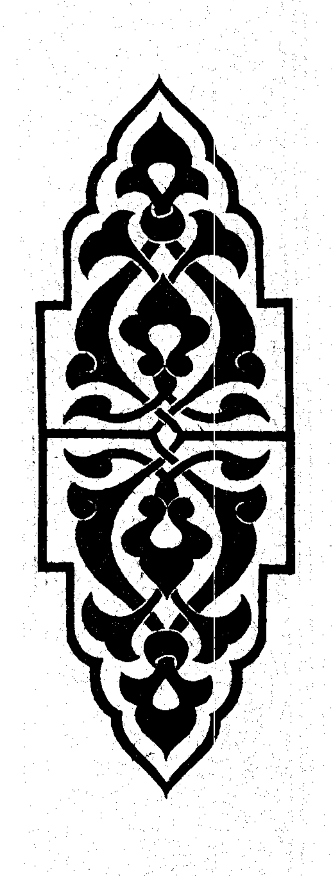
وَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ بِنَفْسِهِ يُرْسِل رَسُولًا لِيَسْتَمِعَ إِلَى مَا يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ بنُ عَبْدِ اللهِ ﷺ ... جَاءَ عَبْدُ العُزَّى وَقُرَيْشٌ كُلُّهَا ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَرَأَيْتُم إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِن سَفْحِ هَذَا الجَبَلِ ، تُرِيدُ أَن تُغِيرَ عَلَيْكُمْ ... أَكُنْتُم مُصَدِّقِىّ ؟ » .

قَالُوا جَمِيعاً فِى صَوْتٍ وَاحِدٍ : يَا مُحَمَّدُ ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِباً قَطّ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، فَإِنِّى لَا أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، يَا عَبَّاسُ عَمّ رَسُولِ اللهِ أَنْقِذْ نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ ، فَإِنِّى لَا أُغْنِى عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، أَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةُ مُحَمَّدٍ ، وَيَا فَاطِمَةُ بنتُ مُحَمَّدٍ أَنْقِذَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ النَّارِ ، فَإِنِّى لَا أَمْلِكُ لَكُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً » .

أَنْصَتَ القَوْمُ جَمِيعاً إِلَّا عَبْدَ العُزَّى عَمّ النَّبِىِّ ﷺ ، وَحَمَا ابْنَتَيْهِ رُقَيَّة وَأُمّ كُلْثُوم (رَضِىَ اللهُ عَنْهُمَا) ، فَإِنَّهُ قَالَ أَمَامَ الجَمْعِ : (تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ ... أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا) .



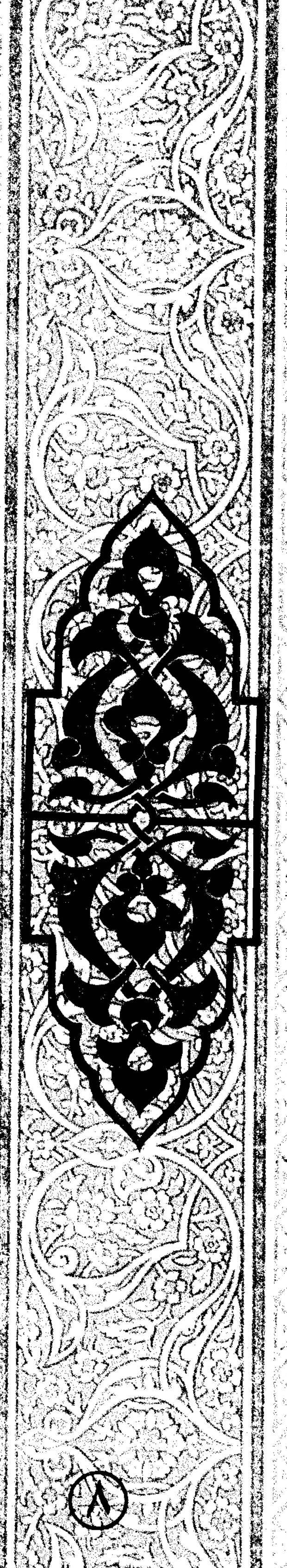
لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، لَمْ يَأْبَهْ بِهِ ، وَأَكْمَلَ حَدِيثَهُ فَقَال : « يَا بَنِى عَبْدِ المُطَّلِبِ ، إِنِّى واللهِ ما أَعْلَمُ شَابًّا مِنَ العَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلَ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ ، إِنِّى قَد جِئْتُكُم بِأَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » .

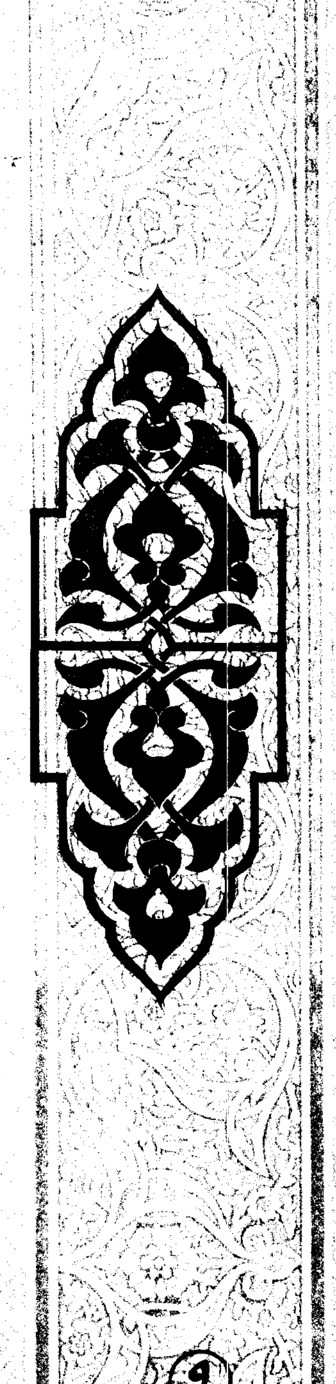
ثُمَّ انْصَرَفَ عَبْدُ العُزَّى وَمَعَهُ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَلَكِنَّ القَوْمَ تَعَجَّبُوا مِمَّا قَالَ عَبْدُ العُزَّى ، وَهُوَ العَمُّ وَأَبُو زَوْجَى ابْنَتَيْهِ !

وَالحَقِيقَةُ أَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ مَا رُزِئَتْ بِإِنْسَانٍ مَلأَهُ الشَّرُّ وَالحِقْدُ مِثْل عَبْد العُزَّى بن عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَبِإِنْسَانٍ آخَر : زَوْجَةِ عَبْد العُزَّى (أُمّ جَمِيلٍ) أُخْتِ أَبِى سُفْيَانَ ابن حَرْبٍ سَيِّدِ أَهْلِ مَكَّةَ فِى الجَاهِلِيَّةِ ، فَالحقْدُ وَالحَسَدُ اللَّذَانِ مَلآ صَدْرَهُمَا عَلَى السَّيِّدَة خَدِيجَةَ (رَضِىَ الله عنهَا) وَزَوْجهَا ﷺ ، لَمْ يَكُن وَلِيدَ بَعْثَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلَا دَعْوَتِهِ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

★ ★ ★

لَقَدْ كَانَ الوَاجِبُ يَفرِضُ عَلَيْهِ ـ وَقَد دَعَا ابنُ أَخِيهِ إِلَى هَذَا الدِّينِ وَإِلَى تَوْحِيدِ الله ـ أَن يَكُونَ بَيْتُ عَبْد العُزَّى عَلَى الحِيَادِ ، إِن لَم يَكُن مِنَ المُجِيبِينَ لِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ابنُ أَخِيهِ وَصِهْرُهُ ، فَإِن كَانَ يَعزُّ عَلَيْهِ تَرْكُ الأَصْنَام وَعِبَادَتها ، فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَن يَفْعَلَ مَا فَعَلَهُ إِخْوَتُهُ مِنَ البَقَاءِ عَلَى دِينِهِمْ ، أَوْ مُنَاصَرَةِ ابْن أَخِيهِمْ كَمَا فَعَلَ أَخُوهُ حَمْزَةُ بنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، أَوِ الالْتِزَامِ بِالصَّمْتِ وَعَدَمِ التَّعَرُّضِ لابْن أَخِيهِ بِالأَذَى .





لَقَد نَسِيَ أَوْ تَنَاسَى أَنَّ ابْنَتَيْ ابن أَخِيهِ مُحَمَّدِ بن عَبْدِ الله ﷺ تَعيشَانِ مَعَهُ ، وَأَنَّ مَا قَالَهُ يُسِيءُ إِلَيْهِمَا خَاصَّةً أَنَّهُمَا عَلَى دِينِ أَبِيهِمَا .

إِسَاءَةٌ وَعَدَاءٌ

لَمْ تَقْتَصِر الإِسَاءَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَمَا نَالَهُ مِنْ عَمِّهِ عَبْد العُزَّى وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا رَأَيْنَا (أُمّ جَمِيلٍ) زَوْجَهُ تَشْتَرِكُ مَعَهُ فِي الإِسَاءَة إِلَيْهِ ، وَالتَّنْدِيدِ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، وَهَذَا مَا لَمْ يَكُن مُتَعَارفاً عَلَيْهِ فِي الجَاهِلِيَّة ، وَلَمْ نَرَ أَوْ نَسْمَعْ أَنَّ امْرَأَةً اشْتَرَكَتْ مَعَ زَوْجِهَا فِي العَدَاءِ لرَسُولِ اللهِ ﷺ بِمِثْلِ مَا فَعَلَتْ (أُمّ جَمِيلٍ) .

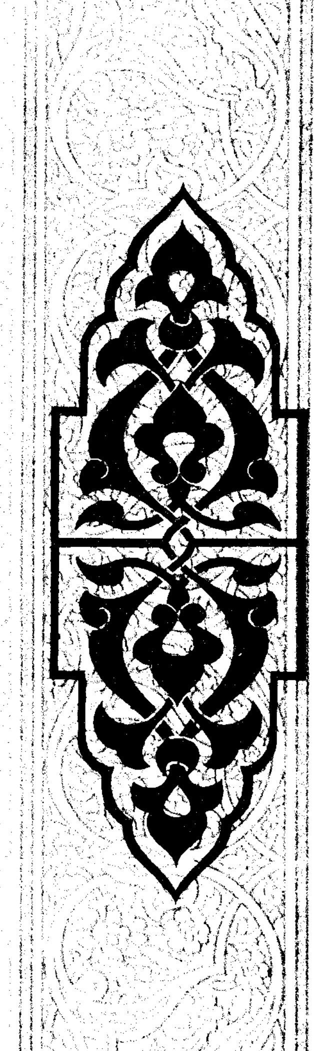
فَعَبْدُ العُزَّى يَرْوِي لامْرَأَتِهِ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ لمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَيُؤَكِّدُ لَهَا مَوْقِفَهُ العَدَائِيَّ مِنْهُ ، وَيَذْكُرُ لَهَا سَاخِراً رُدُودَهُ اللَّاذعَةَ عَلَيْهِ ، وَتَسْفِيهَهُ لكُلِّ مَا يَقُولُهُ للنَّاسِ ، وَأُمّ جَمِيلٍ بدَوْرهَا تُشَارِكُهُ سُخْرِيَتَهُ وَاسْتهْزَاءَهُ ، فَكَانَتْ تَدُورُ فِي بُيُوتِ قُرَيْشٍ ، تَنَالُ مِن مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَوَدُّ أَن تُمْسكَ وَلَو بِخَيْطٍ لتَنَالَ مِنَ السَّيِّدَة خَدِيجَةَ (رَضِيَ الله عنهَا) ، لَكِنَّهَا لَا تَعْرِفُ شَيْئاً تَقُولُهُ فِي حَقِّهَا ، فَلَيْسَ لَهَا مِنَ القَوْلِ أَوِ الفِعْلِ مَا يُسيءُ ، وَلَا تَدْرِي مَا تَقُولُ عَنْهَا ، لأَنَّهَا لَمْ تَشْتَرِكْ مَعَهَا فِي أَيِّ حَدِيثٍ ، أَوْ تَرُدُّ عَلَيْهَا الإِسَاءَةَ بالإِسَاءَةِ ، أَوْ تَعْتبُ عَلَيْهَا فَتُعيدُ لَهَا مَا قَالَتْهُ أَوْ فَعَلَتْهُ فِي ابن أَخِي زَوْجهَا باعْتِبَارِهَا ، أُمَّا لعُتْبَةَ وَعُتَيْبَةَ زَوْجَي بنْتَيْهَا ، أَو الإِسَاءَاتِ الَّتِي تَصْدُرُ مِنْهَا نَحْوَ رُقَيَّةَ وَأُمّ كُلْثُومٍ (رَضِي الله عنهُما) .

كَانَتْ أُمُّ جَمِيلٍ إِذَا أَجْرَتْ حَدِيثاً مَعَ السَّيِّدَة خَدِيجَةَ (رَضِىَ الله عنهَا) فِى مَوْضُوعٍ مُثِيرٍ تَتَحَدَّثُ فِيهِ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ تعَمَّدَت الطَّاهِرَةُ أَن تَنْتَقِلَ بِهَا إِلَى مَوْضُوعٍ آخَرَ ، وَحَدِيثٍ بَعِيدٍ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ بِلَبَاقَتِهَا وَذَكَائِهَا .

أَبُو لَهَبٍ وَأُمُّ جَمِيلٍ

اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ لَمْ يَتْرُكْ أُمَّ جَمِيلٍ وَلَا زَوْجَهَا لِيَقُولَا مَا يُرِيدَانِ قَوْلَهُ مِنْ غَيْرِ أَن يَكُونَا لَهُمَا وَازِعٌ مِن نَفْسَيْهِمَا ، فَقَد رَدَّ عَلَى عَبْد العُزَّى فِى الوَقْتِ المُنَاسِب بِمَا يَقْطَعُ لِسَانَهُ هُوَ وَأُمَّ جَمِيلٍ ، وَيَجْعَلُهُمَا أُضْحُوكَةً بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَةِ وَعَبِيدِ قُرَيْشٍ ، فَقَد أَنْزَلَ اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ بِشَأْنِهِمَا قُرآناً يُتْلَى فِى أَنْحَاءِ الجَزِيرَةِ ؛ لِيُنْذِرَ بِهِ النَّاسَ ، وَلِيُرَدِّدُوهُ عَلَى الأَسْمَاع .

فَحِينَمَا دَعَا الرَّسُولُ ﷺ النَّاسَ إِلَى الإِيمَانِ بِاللهِ وَجَمَعَ الأَهْلَ وَالأَقَارِبَ لِيَسْتَمِعُوا إِلَيْهِ ، لَمْ يَتَكَلَّمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ بِكَلِمَةِ سُوءٍ ، فَقَد اسْتَمَعُوا مُفَكِّرِينَ فِى أَمْرِ الرِّسَالَةِ وَالدَّاعِى إِلَيْهَا ﷺ ، ثُمَّ أَرَادُوا الانْصِرَافَ ، وَلَكِنَّ صَوْتاً خَرَجَ مِن بَيْنِ الجَمِيعِ لِيَقُولَ مُتَطَاوِلًا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ ابنُ أَخِيهِ ، يَقُولُهَا مُتَبَجِّحاً غَيرَ عَابِئٍ بِالقَرَابَةِ وَالمُصَاهَرَةِ : (تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ ... أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا !!؟) .



لَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ المَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَسَدٍ ﴾ (١) .

وَكَانَتْ زَوْجَةُ عَبْد العُزَّى تُؤْذِى رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالكَلِمَةِ النَّابِيَةِ ، وَبِوَضْعِ الحَطَبِ وَالشَّوْكِ فِى طَرِيقِهِ فَجَمَعَهُمَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِى هَذِهِ السُّورَةِ .

★ ★ ★

لَمْ تَكَدِ السُّورَةُ تَنْزِلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى حَفِظَهَا المُسْلِمُونَ، وَرَاحُوا يُرَدِّدُونَهَا فَرِحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ ، وَوَصَلَتْ إِلَى أَسْمَاعِ المُشْرِكِينَ فَرَدَّدُوهَا أَيْضاً ، وَمِنْهُمْ الشَّامِتُ وَالنَّاقِدُ ، وَأَوْصَلُوهَا إِلَى أَسْمَاعِ أُمِّ جَمِيلٍ حَمَّالَةِ الحَطَبِ ، وَإِلَى زَوْجِهَا أَبِى لَهَبٍ ، وَكَانَ كُلَّمَا قَابَلَ وَاحِدٌ آخَرَ قَالَ لَهُ : هَلْ سَمِعْتَ مَا قَالَهُ مُحَمَّدٌ فِى عَبْد العُزَّى وَأُمِّ جَمِيلٍ ؟

قَالَ : نَعَمْ سَمِعْتُ ، وَيَتْلُو عَلَيْهِ السُّورَةَ .

لَقَد سَمَّاهُ القُرْآنُ (أَبَا لَهَبٍ) ، وَسَمَّى أُمَّ جَمِيلٍ (حَمَّالَةَ الحَطَبِ) .

لَقَدْ جُنَّ جُنُونُ أَبِى لَهَبٍ ، وَحَمَّالَةِ الحَطَبِ ، وَكَانَا يَرَيَانِ فِى أَعْيُنِ النَّاسِ سُخْرِيَةً وَاسْتِهْزَاءً ، فَكَانَا كُلَّمَا قَابَلَا إِنْسَاناً اعْتَقَدَا أَنَّهُ يَسْخَرُ مِنْهُمَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهِمَا .

---

(١) سورة المسد : الآيات (١ - ٥) .

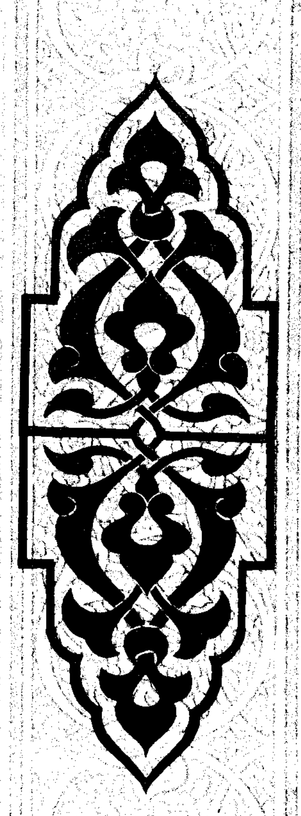
لَقَد أَصْبَحَتْ هَذِهِ السُّورَةُ حَدِيثَ النَّاسِ ، وَهُمْ بَيْنَ المُشْفِقِ ، وَاللَّائِم عَلَيْهِ لتَجَاوُزِهِ الحَدَّ مَعَ ابنِ أَخِيهِ .

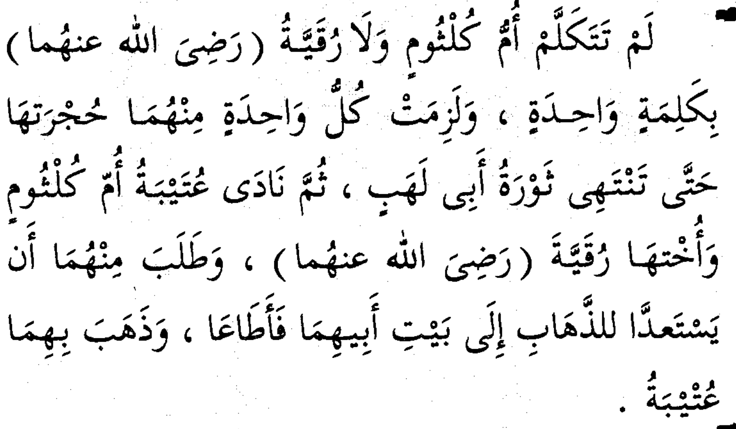
لَقَد فَرِحَ المُسْلِمُونَ فَرَحاً شَدِيداً ، وَكَانَ كُلَّمَا قَابَلَ أَحَدُهُمْ أَخَاهُ المُسْلِمَ بَدَأَهُ بِالسَّلَام ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِ سُورَةَ (المَسَدِ) وَهُوَ بَيْنَ السُّرُورِ وَالشُّكْرِ لله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ الَّذِى رَدَّ عَن نَبِيِّهِ ﷺ كَيْدَ أَبِى لَهَبٍ ، وَأُمِّ جَمِيلٍ حَمَّالَةِ الحَطَبِ .

وَلَقَد أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَن يُنْهِى كُلَّ صِلَةِ الرَّسُولِ ﷺ بِهَذَا السَّفِيهِ الَّذِى أَقْحَمَ نَفْسَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ ، فَمَاذَا عَلَيْهِ لَوْ جَعَلَ لِلْقَرَابَةِ ، وَالنَّسَبِ مَنْزِلَةً ، فَكَفَّ لِسَانَهُ عَنِ الإِيذَاءِ ، وَمَا عَلَى حَمَّالَةِ الحَطَبِ لَوكَفَّتْ عَن شَتَائِمِهَا ، وَلَزِمَتْ دَارهَا ، وَرَاعَتْ حُرمَةَ البِنْتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَعيشَانِ مَعَهَا ، وَلَكِنَّهَا بِمَا فَعَلَتْ اسْتَحَقَّتْ غَضَبَ اللهِ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ وَلَعْنَتَهُ .

لَقَد أَخَذَ الغَضَبُ مِنْ أَبِى لَهَبٍ مَأْخَذَهُ ، وَهَدَّدَتْ (حَمَّالَةُ الحَطَبِ) بالانْتقَام مِن مُحَمَّدٍ ﷺ ، ثُمَّ نَادَى أَبُو لَهَبٍ ابْنَهُ عُتَيْبَةَ زَوْجَ أُمِّ كُلْثُومٍ (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَابْنَهُ عُتْبَةَ زَوْج رُقَيَّةَ (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَهُوَ هَائِجٌ كَالثَّوْرِ المَطْعُون يَسُبُّ وَيَشْتِمُ ، وَأَسْمَعَهُمَا مَا قَالَهُ مَحَمَّدٌ ﷺ فِيهِ ، وَفِى أُمِّهِمَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا : (رَأْسِى وَرَأْسِيكُمَا حَرَامٌ إِن لَمْ تُفَارِقَا ابْنَتَىْ مُحَمَّدٍ) .

★ ★ ★





لَمْ تَتَكَلَّمْ أُمُّ كُلْثُومٍ وَلَا رُقَيَّةُ (رَضِىَ الله عنهُما) بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَزِمَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا حُجْرَتها حَتَّى تَنْتَهِى ثَوْرَةُ أَبِى لَهَبٍ ، ثُمَّ نَادَى عُتَيْبَةُ أُمّ كُلْثُومٍ وَأُخْتهَا رُقَيَّةَ (رَضِىَ الله عنهُما) ، وَطَلَبَ مِنْهُمَا أَن يَسْتَعِدَّا للذَّهَابِ إِلَى بَيْتِ أَبِيهِمَا فَأَطَاعَا ، وَذَهَبَ بِهِمَا عُتَيْبَةُ .

قَابَلَتْهُمَا السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ فَرِحَةً مَسْرُورَةً تَشْكُرُ المَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَن نَجَّاهُمَا مِن مَكَايِدِ حَمَّالَةِ الحَطَبِ (أُمِّ جَمِيلٍ) وَزَوْجهَا أَبِى لَهَبٍ (عَبْد العُزَّى) وَرَاحَت تُعِيدُ إِلَيْهِمَا الهُدُوءَ وَالطُّمَأْنِينَةَ وَالرِّضَا بِمَا يُرِيدُهُ الله لَهُمَا ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يُرِيدُ لَهُمَا إِلَّا الخَيْرَ .

لَقَد وَجَدَا فِى أُخْتِهِمَا الصَّغِيرَة فَاطِمَةَ (رَضِىَ الله عنهَا) كُلَّ تَسْلِيَةٍ وَسُلْوَانٍ ، فكن يَتَتَبَّعْنَ مَا يَحْدُثُ خَارِجَ المَنْزِلِ مِن مُعَامَلَةِ المُشْرِكينَ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَيَحْفَظْنَ مَا يَنْزِلُ مِنَ القُرْآنِ مِن آيَاتٍ وَسُوَرٍ ، وَيَقُمْنَ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ صَاحِبُ الرِّسَالَةِ وَالِدُهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ .

★ ★ ★

حَمَّالَةُ الحَطَبِ وَالنَّبِىُّ ﷺ

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ عِنْدِ عَمِّه أَبِى طَالِبٍ ، وَذَهَبَ إِلَى الحَرَمِ ، وَهُنَاكَ الْتقَى بِأَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ (رَضِىَ الله عنهُ) ، فَرَاحَا يَتَحَدَّثَانِ فِى أُمُورِ الدَّعْوَة ، وَمَا تَتَعَرَّضُ لَهُ مِن كُفَّارِ مَكَّةَ ، وَبَيْنَمَا هُمَا مُسْتَغْرِقَانِ فِى الحَدِيثِ ، إِذْ بِحَمَّالَةِ الحَطَبِ ، تُقْبلُ عَلَى أَبِى بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) وَتُنَادِيه ، وَكَانَ فِى يَدِهَا حَجَرٌ كَبِيرٌ عَزَمَت أَن تَضْرِبَ بِهِ رَأْسَ الرَّسُولِ ﷺ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّهَا امْرَأَةٌ مُؤْذِيَةٌ ، فَلَوْ قُمْتَ ، فَوَاللهِ لَتُؤْذِيَنَّكَ ...

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّهَا لَن تَرَانِى ... » .

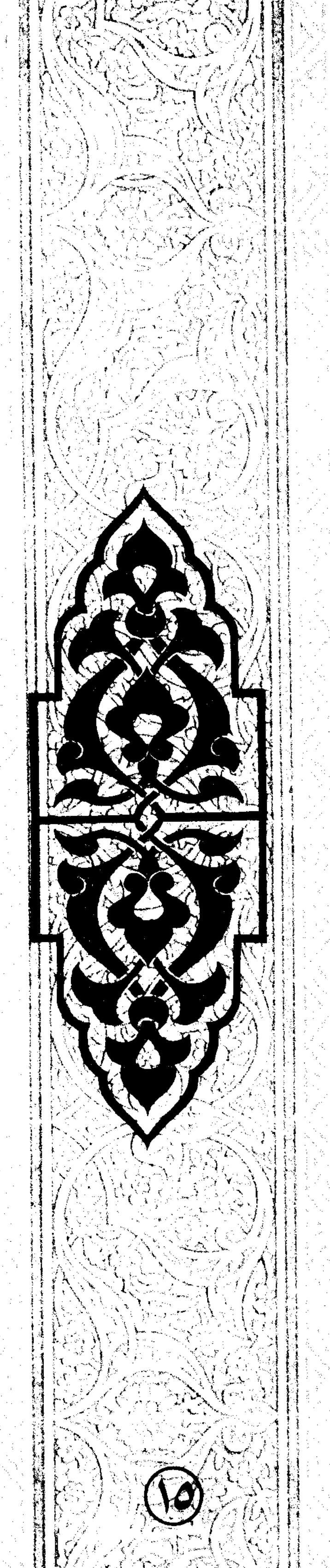
فَدَنَتْ مِن أَبِى بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) وَقَالَتْ : يَا أَبَا بَكْرٍ .. صَاحِبُكَ هَجَانِى .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) : لَا وَرَبِّ هَذَا البَيْتِ مَا هَجَاكَ !

قَالَتْ حَمَّالَةُ الحَطَبِ : أَنْشَد فِىّ شِعْراً ، وإِنِّى شَاعِرَةٌ :

مُذَمَّماً أَبَيْنَا   وَدِينَهُ قَلَيْنَا
وَأَمْرَهُ عَصَيْنَا

لَقَد صَرَفَ اللهُ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ شَتْمَ قُرَيْش وَصَرَفَ عَنْهُ شَتْمَ حَمَّالَةِ الحَطَبِ ، فَهِىَ تَشْتُمُ مُذَمَّماً وَلَمْ تَشْتُمْ مُحَمَّداً ﷺ .



وَلّت حَمَّالَةُ الحَطَبِ ، وَلَمْ تُؤْذِ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَقَدْ جَعَلَ الله بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ حِجَاباً ، فَلَمْ تَرَهُ ، وَهُوَ أَمَامَهَا ، وَقَدْ جَاءَتْ لتَضْرِبَهُ بِمَا فِى يَدِهَا ، لتُخَفِّفَ عَن نَفْسِهَا مَا تَحْمِلُهُ مِنَ الحِقْدِ وَالبُغْضِ :

﴿... فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١) .

عَوْدَةٌ سَعِيدَةٌ

كَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ (رَضِىَ الله عنهَا) سَعِيدَةً بِالْعَوْدَةِ إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا وَبَعْدَ أَنْ تَرَكَتْ بَيْت ابن حَمَّالَةِ الحَطَبِ ، وَكَانَ لَهَا فِى لِقَاءِ أُخْتِهَا فَاطِمَة (رَضِىَ الله عنهَا) سَلْوَى وَعَزَاء ، أَمَّا أُخْتُهَا رُقَيَّة (رَضِىَ الله عنهَا) فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ تَزَوَّجَتْ ، وَتَرَكَتْ البَيْتَ وَذَهَبَتْ لِتُقِيمَ مَعَ زَوْجِهَا عُثْمَانَ بن عَفَّان (رَضِىَ الله عنهُ) .

رَاحَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ (رَضِىَ الله عنهَا) تُتَابِعُ مَا يَلْقَاهُ أَبُوهَا مِنْ رُؤَسَاءِ مَكَّةَ وَكِبَارِهَا مِنَ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ ضَاعَفُوا العَمَلَ وَالإِيذَاءَ ضِدّ المُسْلِمِينَ لِيَقْضُوا عَلَى دَعْوَةِ الإِسْلَامِ ، وَاتَّخَذُوا فِى ذَلِكَ أَسَالِيبَ مُخْتَلِفَة .

فَقَدْ فَكَّرَ القَوْمُ فِى أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى أَبِى طَالِبٍ ، وَيَعْرِضُوا عَلَيْهِ مَوْضُوعاً جَدِيداً لَعَلَّهُ يَقْبَلُهُ ، لَقَدْ مَشَوْا إِلَيْهِ وَمَعَهُمْ (عمارة بن الوَلِيد) ، ثُمَّ قَالُوا لأَبِى طَالِبٍ :

---

(١) سورة يوسف : الآية (٦٤) .

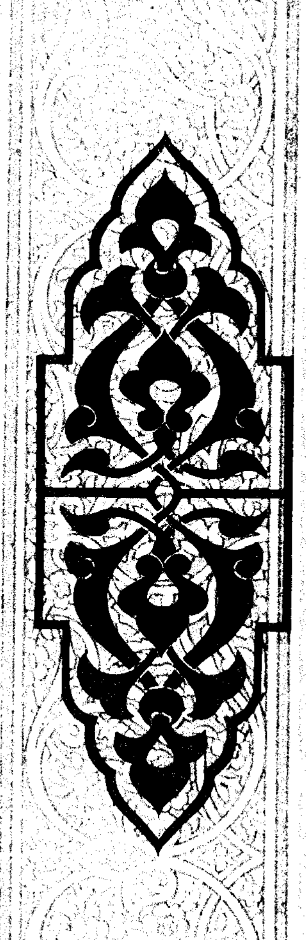
يَا أَبَا طَالِب هَذَا أنهد [١] فتى فِى قُرَيْشٍ وَأَجمله فَخُذْهُ وَادْفَع إِلَيْنَا هَذَا الَّذى خَالَفَ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ ، فَإِنَّمَا هُوَ رَجُل بِرَجُل لِنَفْعَلَ بِهِ مَا نَمْنَعُه مِنْ سَبّ آلِهَتِنَا وَنَشْرِهِ لِدِينِهِ الجَدِيد .

فَقَالَ لَهُمْ أَبُو طَالِبِ : بِئْسَ مَا تُسومُونَنِى ، تُعْطُونَنِى ابْنَكُمْ أُرَبِّيه لَكمْ ، وَأُعْطِيكُمْ ابْنِى تَقْتُلُونَهُ !!

فَقَالَ الـمُطْعَمُ بن عدى : يَا أَبَا طَالِب ، قَد أَنْصَفَكَ قَوْمُكَ ، وَجَهِدُوا عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْكَ بِكُلِّ طَرِيق .

قَالَ أَبُو طَالِب : وَاللهِ مَا نَصَفْتُمُونِى ، وَلَكِنَّكَ أَجْمَعْتَ عَلَى خُذْلَانِى ، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَكَ [٢] .

وَقَالَ أَشْرَافُ مَكَّةَ لأَبِى طَالِبِ : إِمَّا أَنْ تُخَلِّى بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَنَكْفِيكَهُ ، فَإِنَّكَ عَلَى مِثْل مَا نَحْنُ عَلَيْهِ ، أَوْ أَجْمِعْ لِحَرْبنَا ، فَإِنَّا لَسْنَا بِتَارِكِى ابن أَخِيكَ عَلَى هَذَا حَتَّى نُهْلِكَهُ أَوْ يَكُفَّ عَنَّا ، فَقَدْ طَلَبنَا التَّخَلُّصَ مِنْ حَرْبِكَ بِكُلِّ مَا نَظُنّ أَنَّهُ يُخَلِّصُ .



خَوْفٌ وَتَضَرُّع

رَأَى المُشْرِكُونَ أَنْ يَمْشُوا إِلَى بَنِى هَاشِم وَبَنِى المُطَّلِب ، فَذَهَبُوا إِلَيْهِمْ ، وَأَخَذُوا يُسَاوِمُونَهُمْ فَقَدْ قَالُوا لَهُمْ : خُذُوا مِنَّا دِيَةً مُضَاعَفَة ، يقْتل مُحَمَّداً رَجُلٌ مِنْ

---

(١) أى أكرم وأشرف .

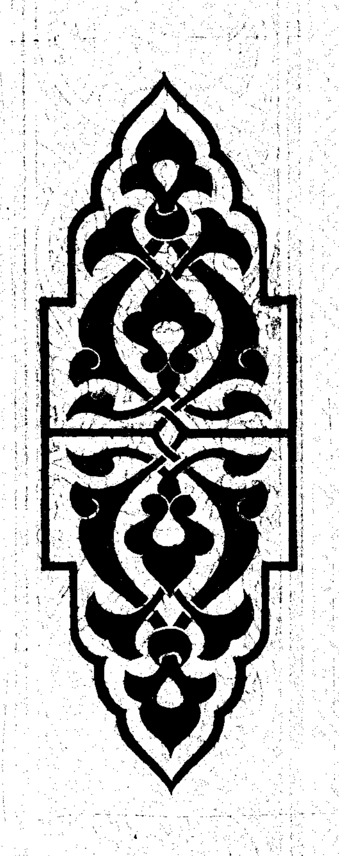
(٢) (السيرة النبوية ، لابن هشام ج ١ ص ٢٦٦) .

قُرَيْشٍ ، وَتُرِيحُونَنَا وَتُرِيحُونَ أَنْفُسَكُمْ[1] .

فَثَارَ بَنُو هَاشِم وَبَنُو المُطَّلِب وَاعْتَبَرُوا هَذَا القَوْلَ مَهَانَةً لَهُمْ ، فَزَادُوا فِي مُعَارَضَةِ القَوْمِ، وَالرَّدّ عَلَى سَفَهِهِمْ .

وَقَالَ بَنُو هَاشِم وَبَنُو المُطَّلِب : وَاللهِ لَوْ مُسّ مُحَمَّدٌ لَظَلّ القِتَالُ بَيْنَنَا حَتَّى يُفْنِي بَعْضُنَا بَعْضاً ، وَبِهَذَا انْتَقَلَ الأَمْرُ مِنْ الإِيذَاءِ إِلَى عَدَاء بَيْنَ بَنِي هَاشِم وَبَنِي المُطَّلِبِ ــ غَيْرَ أَبِي لَهَبٍ ــ وَبَيْنَ أَعْدَاءِ الدَّعْوَة .

وَكَانَتْ أُمّ كُلْثُوم (رَضِيَ الله عنهَا) فِي بَيْت أَبِيهَا تَسْمَع بكل هَذَا وَلَا تَمْلك إِلَّا دُمُوعهَا ، الَّتِي تَتَسَاقَط مِنْ عَيْنيهَا ، وإِلَّا الدُّعَاء والتَّضَرّع إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَن يُنَجِّي رَسُولهُ ﷺ مِنْ كُفَّار مَكَّةَ ، وَأَنْ يَنصُرهُ عَلَيْهِمْ .



المُقَاطَعَة

أَقَامَ القَوْمُ عَلَى ذَلِكَ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ حَتَّى جهدُوا ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ شَيْء إِلَّا سِرًّا ، مُسْتَخْفِياً بِهِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِلَ قَرِيباً لَهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، لَقَدْ قُطِعَتْ عَنْهُمْ الأَطْعِمَةُ حَتَّى اشْتَدّت بِهِمُ الحَال .

وَكَانَتْ السَّيِّدَة خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد وَالِدَةُ أُمّ كُلْثُوم (رَضِيَ الله عنهُمَا) مِنْ الأَوَائِل الَّذِينَ دَخلُوا الشّعبَ مَعَ زَوْجِهَا ﷺ تُشَارِكُهُ وَتَتبعُه إِيمَاناً وَمَحَبَّةً للهِ

---

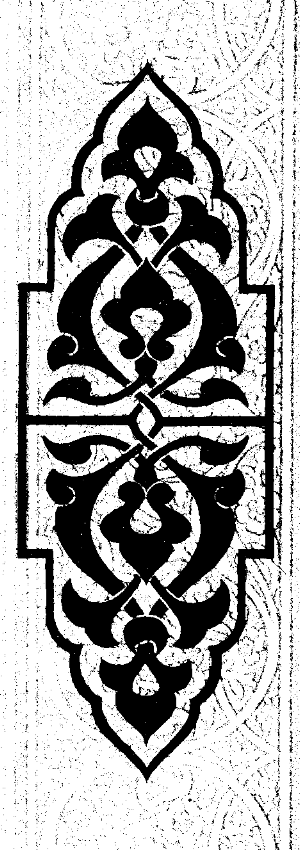
(١) (سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٠٢) .

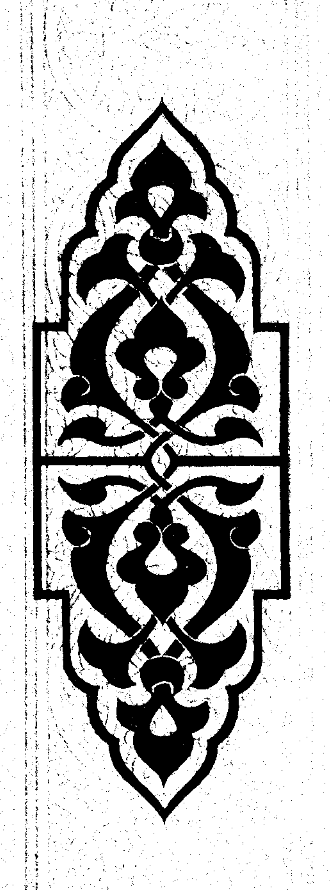
وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، تَتَحَمَّلُ آلَامَ الحَيَاةِ وترعى النَّبِىّ ﷺ لَيْلًا وَنَهاراً تُرَاقِبُهُ مَخَافَةَ أَنْ تَغْدرَ بِهِ قُرَيْش ، تُسَاعِدُهَا فِى ذَلِكَ أُمُّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنهَا) فَكَانَتْ تُلَازِمُهَا وَتُسَاعِدُهَا ، وَتَقْضِى لَهَا حَاجَاتِهَا الَّتِى تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَها لَهَا .

كَانَتْ أُمُّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنهَا) تَتَأَلَّمُ لِأُمِّهَا ، وَتَرَاهَا وَقَدْ تَقَدَّمَتْ بِهَا السِّنُّ ، وَلَكِن مَاذَا تَفْعَلُ إِنَّهَا تَتَحَمَّلُ الشِّدَّة وَالعَذَابَ وَمَعَهَا أُخْتُهَا فَاطِمَةُ ، أَمَّا رُقَيَّة فَقَدْ كَانَتْ مَعَ زَوْجِهَا عُثْمَان بن عَفَّان ، وَكَانَتْ قَدْ هَاجَرَتْ مَعَهُ إِلَى الحَبَشَة (رَضِى الله عنهُم) .

عَوْنٌ وَمُسَاعَدَةٌ

كَانَ بَنُو أَسَدٍ وَهُمْ مِنَ الَّذِينَ قَاطَعُوا بَنِى هَاشِم وَبَنِى المُطَّلِبِ ، يَعْرِفُونَ أَنَّ السَّيِّدَة خَدِيجَةَ (رَضِىَ الله عنهَا) قَدْ يُؤْذِيهَا الجُوعُ ، وَهِىَ الَّتِى تَرَبَّتْ فِى مَنَابِتِ العِزِّ وَالرَّفَاهِيَةِ ؛ لِذَلِكَ فَقَدْ رَتَّبُوا أُمُورَهُمْ عَلَى أَنْ يُرْسِلُوا إِلَيْهَا الكَثِيرَ مِمَّا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، فَكَانَ إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ وَنَامَ القَوْمُ ، أَعَدُّوا المَتَاعَ ، الَّذِى يَظُنُّونَ أَنَّهَا تحتاجُ إِلَيْهِ ، وَوَضَعُوهُ فوقَ رَاحِلَةٍ يَتَوَلَّى قِيَادَتَهَا غُلَامٌ يَذْهَبُ بِهَا إِلَى خَدِيجَةَ (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَكَانَ أَحْيَاناً يُوضَعُ المَتَاعُ عَلَى الرَّاحِلَةِ وَيُؤْتَى بِهَا إِلَى بَابِ الشِّعْبِ ، ثُمَّ تُضْرَبُ





لِتَدْخُلَ عِنْدَ السَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ وَبِنْتَيْها أُمّ كُلْثُومٍ وَفَاطِمَةَ (رَضِيَ الله عَنهُنَّ) .

لَقِيَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ (حَكِيم بنَ حِزَامٍ) ابْنَ أَخِي خَدِيجَةَ بنتِ خُوَيْلِد (رَضِيَ الله عنهَا) وَفي هَذِهِ المَرَّةِ كَانَ مَعَهُ غُلَام يَحمِلُ قَمْحاً يُرِيدُ عَمَّتَهُ خَدِيجَة (رَضِيَ الله عنهَا) فتَعَلَّق بِهِ أَبُو جَهْلٍ ، وَقَالَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ : أَتَذْهَبُ بالطَّعَامِ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ ؟! لَا تَذْهَبْ أَنْتَ وَطَعَامَكَ حَتَّى أَفْضَحكَ بِمَكَّةَ .

فَقَالَ أَبُو البُخْتُرِيّ بْنُ هِشَامٍ بْنُ الحَارِثِ : طَعَامٌ كَانَ لِعَمَّتِهِ خَدِيجَةَ (رَضِيَ الله عنهَا) عِنْدَهُ ، أَفَتَمْنَعُهُ أَنْ يأْتِيهَا بِطَعَامِهَا ؟

فَذَهَبَ إِلَى زَمْعَة بْنِ الأَسْوَدِ فَكَلَّمَهُ ، وَذَكَرَ لَهُ قَرَابَتَهُمْ وَحَقَّهُم ، فَقَالَ : وَهَلْ عَلَى هَذَا الأَمر [أي : نقض الصَّحيفة] الَّذِي تَدْعُونِي إِلَيْهِ مِنْ أَحَدٍ ؟

قَالَ : نَعَمْ ، وَسَمَّى لَهُ القَوْمَ .

نَقْضُ الصَّحِيفَة

تَوَاعَدَ القَوْمُ عَلَى الاجْتِمَاع لَيْلاً وَاتَّفَقُوا عَلَى مَكَان اجْتِمَاعِهِمْ ، وَهُوَ أَعْلَى جَبَلِ الحجُونِ [1] ، وَهُنَاكَ تَمّ اجْتِمَاعُهُمْ ، وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَتَعَاهَدُوا عَلَى القِيَامِ فِي نَقْضِ الصَّحِيفَةِ ، حَتَّى يَنْقُضُوهَا .

(١) **الحَجُونُ** : موضع بمكة .

قَالَ زُهَيْر : أَنَا أَبْدَؤُكُم ، فَأَكُونُ أَوّل مَنْ يَتَكَلَّمُ .

فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا إِلَى أَنْدِيَتِهِمْ ، وَغَدَا زُهَيْر وَعَلَيْهِ حُلَّة جَدِيدَةٌ ، فَطَافَ بِالبَيْتِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ قَائلًا : يَا أَهْلَ مَكَّةَ أَنَأْكُلُ الطَّعَامَ ، وَنَلْبَسُ الثِّيَاب ، وَبَنُو هَاشِم هَلْكَى لَا يَبِيعُونَ ، وَلَا يُبْتَاعُ مِنْهُمْ ؟ واللهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تُشَقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ القَاطِعَة الظَّالِمَة .

قَالَ أَبُو جَهْل - وَكَانَ فِى نَاحِيَة المَسْجِدِ - : كَذَبْتَ ـــ وَاللهِ ـــ لَا تُشَقُّ .

قَالَ زَمْعَة بنُ الأَسْوَد : أَنْتَ ـــ وَاللهِ ـــ أَكْذَبُ ، مَا رَضِينَا كِتَابَتهَا حِينَ كُتِبَتْ .

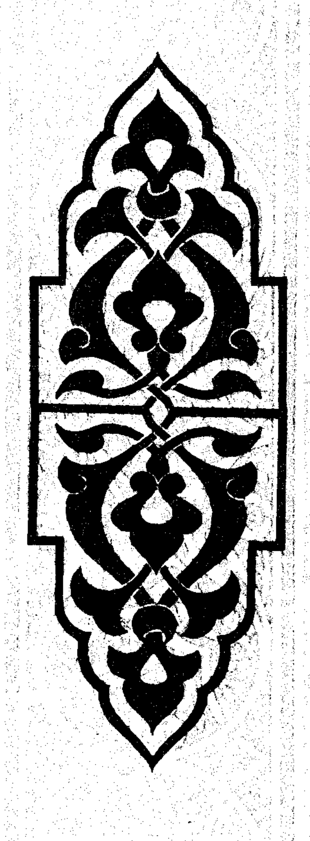
قَالَ أَبُو البخْترى : صَدَقَ زَمْعَة ، لَا نَرْضَى مَا كُتِبَ فِيهَا وَلَا نُقِرُّ بِهِ .

قَالَ الـمُطْعَم بن عَدِىّ : صَدَقْتُمَا ، وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلكَ ، نَبْرَأ إِلَى اللهِ مِنْهَا ، وَمِمَّا كُتِبَ فِيهَا .

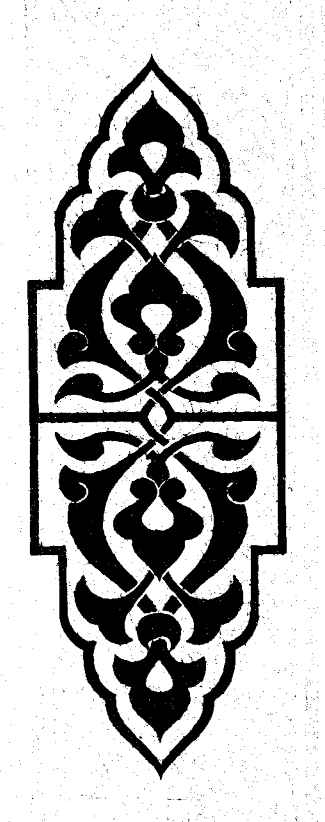
وَقَالَ هِشَامُ بن عَمْرو نَحْواً مِنْ ذَلكَ .

فَقَالَ أَبُو جَهْل : هَذَا أَمْر قُضِىَ بِلَيْلٍ ، تَمَّ التَّشَاوُرُ فِيهِ فِى غَيْرِ هَذَا المَكَان .

كَانَ أَبُو طَالب جَالِساً فِى نَاحِيَةِ المَسْجِدِ ، وَقَدْ سَمِعَ مَا دَارَ بَيْنَ القَوْم وَرَأَى المُطْعَم بْن عَدِىّ ، وَقَدْ قَامَ إِلَى الصَّحِيفَةِ لِيَشُقَّهَا ، فَوَجَدَ أَنَّ الأَرَضَةَ[1] قَدْ أَكَلَتْهَا إِلَّا « باسْمِكَ اللَّهُمَّ »[2].



(١) الأَرَضَة : حشرة بيضاء مصفرة تشبه النملة ، وتأكل الخشب ونحوه .
(٢) (السيرة النبوية ، لابن هشام ج ١ ص ٣٧٦) .



رَجَعَ أَبُو طَالِب إِلَى شِعْبِ بَنِى هَاشِمِ ، لِيَزُفَّ إِلَى الجَمِيعِ انْتِهَاءَ المُقَاطَعَةِ وَتَمْزِيق الصَّحِيفَةِ ، وَلِيَعُود كُلُّ واحد إِلَى بَيْتِهِ .

خَرَجَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَكَانَ المَرَضُ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ السَّيِّدَة خَدِيجَة (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَبَدَا عَلَيْهَا الضَّعْفُ وَالهُزَالُ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَمْشِى وَحْدَهَا فَاعْتَمَدَتْ عَلَى أُمِّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنها) فِى مشْيَتِهَا ، فَأَحَاطَتهَا ابْنَتُهَا بِرِعَايَتِهَا وَإِخْلَاصِهَا .

خَرَجَت السِّيِّدَةُ خَدِيجَة (رَضِىَ الله عنهَا) مُتَثَاقِلَةً غَيْر نَشِيطَةٍ نَشَاطَهَا المَعْهُود ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقْضِى حَاجَاتِهَا بِنَفسهَا ، فَكَانَتْ أُمّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنهَا) تُعَاوِنهَا وَتُسَاعدهَا ، وَتُقَدِّمُ إِلَيْهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا قَرُبَتِ النِّهَايَةُ وَقَفَتْ أُمُّ كُلْثُوم مَعَ أُخْتهَا فَاطِمَة (رَضِىَ الله عنهُما) تَبْكِى وَتَنْتَحِبُ ، وَقَد اقْتَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُهَوِّنُ عَلَيْهَا لِقَاءَ اللهِ ، وَهِىَ تُوَدِّعُ الحَيَاةَ ، فَكَانَ مِمَّا قَالَهُ يُخَاطِبُ السَّيِّدَة خَدِيجَة (رَضِىَ الله عنهَا) : « يَا لَكُرْهِ مَا أَرَى مِنْكِ يَا خَدِيجَة ، وَقَدْ جَعَلَ الله لِى فِى الكُرْهِ خَيْراً كَثِيراً » (١) .

ثُمَّ أَسْلَمَت الرُّوحَ وَهِىَ بَيْنَ يَدَى رَسُولِ اللهِ ﷺ .



★ ★ ★

---

(١) (السيرة النبوية ، لابن هشام ج ١ ص ٣٠٤) .

حُـزْنٌ وَبُـكَاء

بَكَتْ أُمّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنهَا) بِقَدْرِ مَا أَطَاقَتْ مِنَ البُكَاء ، فَقَدِ التَقَى حُزْنُهَا مَعَ أُخْتهَا فَاطِمَة (رَضِى الله عنهَا) ، وَخَلَا البَيْتُ إِلَّا مِنْهُمَا وَمِنْ رَسُولِ الله ﷺ .

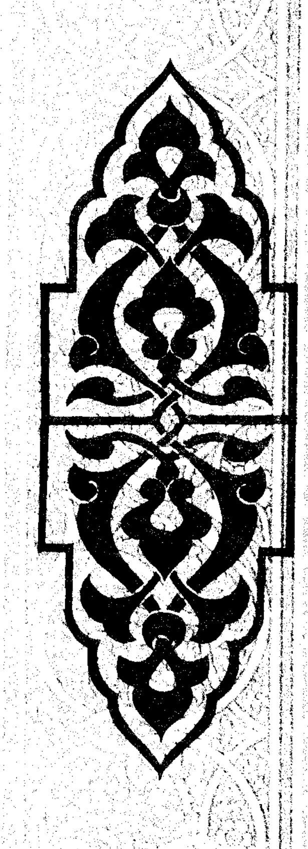
ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَرَادَ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ أُمّ كُلْثُوم وَفَاطِمَة (رَضِىَ الله عنهُمَا) مِنْ مَتَاعِبِ الحَيَاةِ ، فَأَتَى بِسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَة (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَهِىَ امْرَأَةٌ صَالِحَةٌ طَيِّبَةٌ لِتَكُونَ مَعَهُمَا، وَتَسْهَرَ عَلَى رَاحتهمَا فَكَانَتْ نِعْمَ المُرَافِقَة لأُمِّ كُلْثُوم وَفَاطِمَة (رَضِىَ الله عنهُمَا) .

إِيـذَاءٌ وَأَلَم

اشْتَدّ إِيذَاءُ المُشْرِكينَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وضَعُفَتْ يَدُ المُعَاوَنَةِ وَالمُسَاعَدَة بِمَوْتِ السَّيِّدَة خَدِيجَة (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَبِمَوْتِ أَبِى طَالِبِ عَمّهِ ﷺ ، وَأَصْبَحَ عُرْضَـةً لأَذَى المُشْرِكِينَ ، وَأَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الطَّائِف ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْ أَهْلِهَا إِلَّا الجُحُودَ وَالإِنْكَار .

وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ إِلَّا اللّجُوءَ إِلَى الله يَطْلُبُ منهُ العَوْنَ وَالمُسَاعَدَة ، فَاتَّجَهَ إِلَيْـهِ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ طَالِباً مِنْهُ العَوْنَ وَالمُسَاعَدَةَ .

فَكَّرَ المُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ فِى طَرِيقَةٍ يَتَخَلَّصُونَ بِهَا مِنْهُ نَهَائِيًّا ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَخْتَارُوا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ



فتًى قَوِيًّا جَلداً ، وَعَهِدُوا إِلَيْهِمْ بالتَّرَصُّد لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَقِفُوا بِبَيْتِهِ لَيْلًا حَتَّى إِذَا خَرَجَ فِي الصَّبَاحِ هَجَمُوا عَلَيْهِ وَضَرَبُوهُ بِسُيوفِهِمْ ، فَإِذَا أَرَادَ بَنُو هَاشِم أَنْ يَثْأَرُوا لأَنْفُسِهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ ، فَتُفَرَّقُ دِيَتُهُ عَلَى القَبَائِل .

وَفِي اللَّيْلَةِ الَّتِي اتَّفَقُوا عَلَيْهَا أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ بِالهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى يَثْرِبَ (المَدِينَة) ، وَلِيَتَّخذَ لَهُ صَاحباً هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق (رَضِيَ اللهُ عنهُ) ، وَلِيُضَلِّلَ القَوْمَ فَيَجْعَلَ ابن عَمِّهِ عَلِيًّا (رَضِيَ اللهُ عنهُ) يَنَامُ مَكَانَهُ ، حَتَّى يَطْمَئِنّ القَوْمُ إِلَى أَنَّهُ فِي فِرَاشِهِ نَائِماً .

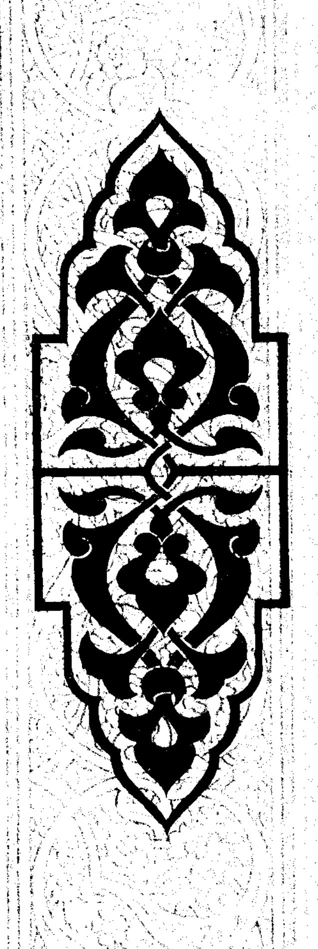
الهِجْرَةُ إِلَى المَدِينَة

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ جَمَعَ ابْنَتَيْهِ أُمّ كُلْثُوم وَفَاطِمَة (رَضِيَ اللهُ عنهُمَا) وَوَدّعَهُمَا وَأَسَرّ إِلَيْهِمَا بِأَنَّهُ سَوْفَ يُهَاجِرُ إِلَى يَثْرِبَ (المَدِينَة) وَأَنَّهُمَا وَمَنْ مَعَهُمَا سَيَلْحَقَانِ بِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ .

ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيَ اللهُ عنهُ) ، وَفِي سِرِّيَّةٍ تَامَّةٍ قَضَى مَعَهُ بَعْضَ الوَقْتِ ، ثُمَّ خَرَجَا مِنْ خَوخَةٍ[1] فِي بَيْتِهِ (رَضِيَ اللهُ عنهُ) .. خَرَجَا فِي طَرِيقِهِمَا إِلَى حَيْث أَمَرَهُ اللهُ .

لَمْ يَنْسَ ﷺ أَنْ يُوَدِّعَ مَكَّةَ ، وَهِيَ البَلَدُ الَّذِي أَخْرَجَهُ أَهْلُهَا مِنْهَا بِقَوْلِهِ ﷺ : « وَاللهِ إِنَّكِ لأَحَبّ

(١) **الخَوْخَةُ** : باب صغير ، كالنافذة الكبيرة .



أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ ، وَإِنَّكِ لَأَحَبّ أَرْضِ اللهِ إِلَيّ ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِى مَا فَارَقْتُكِ »[1].

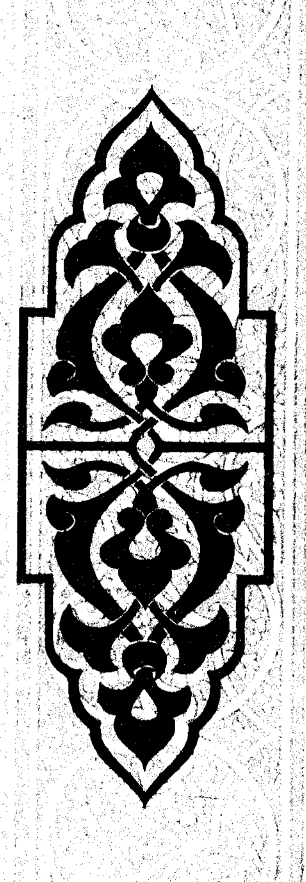
بَقِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِى غَارِ ثَوْر أَيَّاماً ، ثُمَّ تَابَعَ سَيْرَهُ حَتَّى وَصَلَ أَعَالِى يَثْرِبَ (المَدِينَة) فَقَابَلَهُ أَهْلُهَا بالبِشْرِ وَالتِّرْحَابِ ، وَدَخَلُوا فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً .

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ رَسُول اللهِ ﷺ فِى يَثْرِبَ (المَدِينَة) وَوَجَدَ مِنْ أَهْلِهَا كُلّ حَبٍّ وَإِخْلَاصٍ ، أَرْسَلَ زَيْدَ بْن حَارِثَة (رَضِىَ الله عنهُ) لِيَأْتِى بِأُمّ كُلْثُوم وَفَاطِمَة (رَضِىَ الله عنهُمَا) ... وَيَصْحَبَهُمَا إِلَى يَثْرِب (المَدِينَة) .

وَصَلَتْ أُمُّ كُلْثُوم وَكَانَتْ سَعِيدَةً بِجِوَارِ وَالِدِهَا ، وَكَانَتْ تُقِيمُ مَعَهَا أُخْتُهَا فَاطِمَةُ (رَضِىَ الله عنهُمَا) ، وَكَانَ وَالِدُهُمَا يَتَوَلَّاهُمَا بِالْعِنَايَةِ وَالرِّعَايَةِ .

لَقَدِ الْتَقَتْ أُمّ كُلْثُوم بِأُخْتِهَا رُقَيَّة (رَضِىَ الله عنهُمَا) ، وَكَانَتْ قَدْ هَاجَرَتْ مَعَ زَوْجِهَا عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُ) إِلَى الحَبَشَةِ ... ثُمَّ هَاجَرَتْ مَعَهُ إِلَى المَدِينَةِ و اسْتَقَرَّتْ بِهَا ، إِلَّا أَنَّ مَرَضاً أَصَابَهَا ، فَظَلَّت أُمّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنهَا) بِجَانِبِهَا ، وَشَغَلَتْ نَفْسَهَا بِخِدْمَتِهَا وَقَضَاءِ حَاجَاتِها ، وَيُشَارِكُ عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُ) فِى العِنَايَةِ بِهَا إِلَى أَنْ أَتَاهَا الأَجَلُ المَحْتُوم فَتُوُفِّيَتْ ، وَدُفِنَتْ بِالمَدِينَة .

★ ★ ★



(١) الترمذى (٣٩٢٥) .

الزَّوَاجُ السَّعِيد

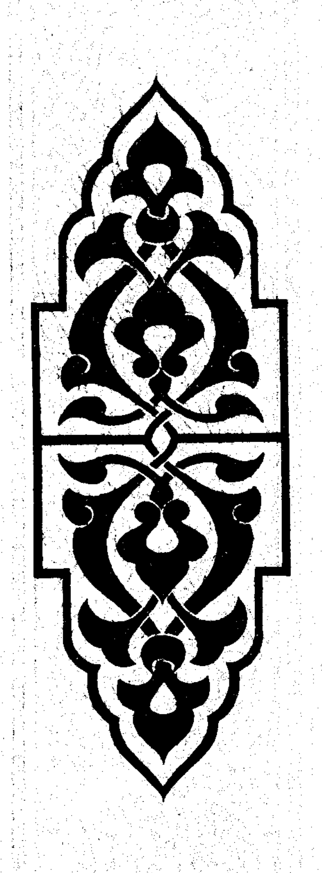
وَبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ ، بَدَأَ يُفَكِّرُ النَّبِىّ ﷺ فِيمَنْ يَتَزَوَّجُ ابْنَتَهُ أُمّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَالمُجْتَمَعُ فى ذَلكَ الوَقْتِ مُجْتَمَعُ تَزْوِيج ، وَلَيْسَ عَيْباً أَنْ يلمِّح إنْسَان لآخَرَ لِيَتزَوَّجَ أُخْتَهُ أَوْ ابْنَتَهُ ، أَوْ يَخْتَارَ لَهَا مَنْ يُنَاسِبُهَا فيُزَوِّجَهُ بِهَا .

فَلَقَدْ عَرَضَ عُمَرُ حَفصَة عَلَى عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُم) ، وَقَالَ عُثْمَانُ : مَا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّج اليَوْمَ ، فَغَضِبَ عُمَرُ مِنْ مَوْقِفِ عُثْمَان بن عَفَّان (رَضِىَ الله عنهُمَا) ، وَعَرَضَهَا كَذَلِكَ عَلَى أَبِى بَكْرٍ (رَضِىَ الله عنهُ) ، فَأَجَابَهُ بِمِثْلِ مَا أَجَابَ عُثْمَانُ (رَضِىَ الله عنهُ) ، وَذَهَبَ إِلَى النَّبِىّ ﷺ ، فَتَلَطَّفَ النَّبِىُّ ﷺ مَعَ عُمَر (رَضِىَ الله عنهُ) وَقَالَ لَهُ : « يَتَزَوَّجُ حَفْصَةَ مَنْ هُو خَيْرٌ مِنْ عُثْمَان ، وَيَتَزَوَّجُ عُثْمَان مَنْ هِىَ خَيْرٌ مِنْ حَفْصَة » !...

وَانْتَظَرَ الجَمِيعُ مَاذَا يَقْصِدُ بِذَلكَ النَّبِىّ (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) .

وَإِذَا برَسُولِ اللهِ ﷺ يَخْتَار حَفْصَةَ (رَضِىَ الله عنهَا) لِنَفْسِهِ ، وَكَانَ صَادِقاً فِيمَا قَالَ ، فَهُوَ خَيْرٌ مِنْ أَبِى بَكْرٍ وَمِنْ عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُمَا) .

وَإِذَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَخْتَارُ لِعُثْمَان مَنْ هِىَ خَيْرٌ مِنْ حَفْصَة (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَكَانَتْ أُمّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنهَا) .



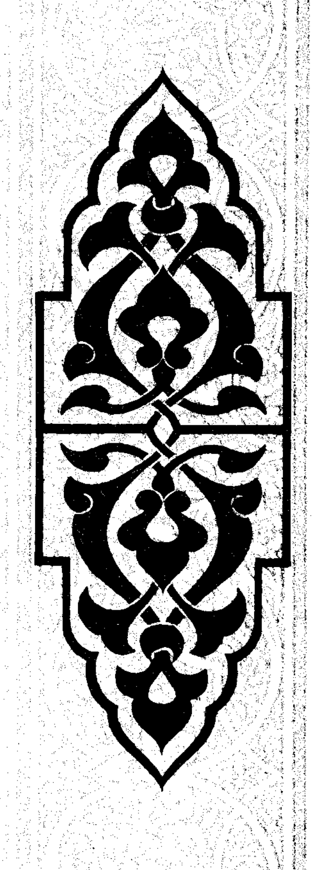
ثُمَّ أَرْسَلَ النَّبِىّ ﷺ خَادِمَتَهُ أُمَّ عيَّاشٍ إِلَى ابْنَتِهِ أُمّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنهَا) .

قَالَتْ أُمّ عَيَّاش : أَرْسَلَنِى وَالِدُك لآخُذَ رَأْيَكِ فِى مَوْضُوع .

قَالَتْ أُمّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنهَا) : مَا هُوَ يَا أُمّ عَيَّاش ؟

قَالَتْ أُمّ عَيَّاش : هُوَ أَنْ يُخْبركِ أَنَّ عُثْمَان يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَكِ بَعْدَ وَفَاةِ أُخْتِكِ رُقَيَّة ، فَهَلْ تَقْبَلِينَ ؟

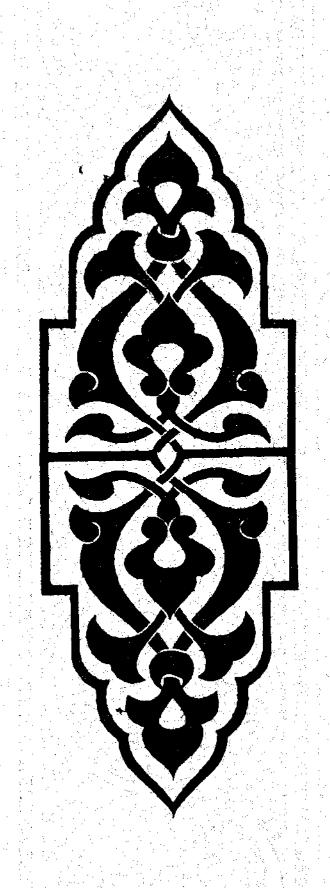
رَضِيَتْ أُمّ كُلْثُوم أَنْ تَتَزَوَّج عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُمَا) ، فَتَمَّ عَقْدُ زَوَاجِهَا عَلَى مِثْلِ صَدَاقِ أُخْتهَا رُقَيَّةَ (رَضِىَ الله عنهُمَا) .



فِى مَكَّة

عَاشَتْ أُمّ كُلْثُوم مَعَ عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُمَا) حَتَّى شَهْر ذِى القِعْدَة مِنْ السَّنَة السَّادِسَة للْهِجْرَةِ ، وَأَرَادَ عُثْمَان وَمَعَهُ زَوْجُهُ أُمّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنهُمَا) أَنْ يَصْحَبَا النَّبِىّ ﷺ لأَدَاءِ العُمْرَةِ فِى مَكَّةَ مسالمين ، وَلَكِنّ قُرَيْشاً مَنَعَتْهُ ، فَعَسْكَرَ فِى الحُدَيْبِيَةِ قَرِيباً مِنْ مَكَّةَ ، وَمَعَهُ مِنَ الرِّجَالِ أَلْف وَخمْسُمائة ، وَأَرْسَلَ إِلَى سَادَةِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ مَا جَاءَ مُقَاتِلًا ، وَإِنَّمَا جَاءَ لِأَدَاءِ العُمْرَةِ ، وَاخْتَارَ أَوّلًا عُمَر بن الخَطَّاب (رَضِىَ الله عنهُ) كَىْ يُبَلِّغَ أَشْرَافَ مَكَّةَ السَّبَبَ الَّذِى جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ ،

وَلَكِنّ عُمَر (رَضِىَ الله عنهُ) قَالَ : (يَا رَسُولَ اللهِ ، إنِّى أَخَافُ قُرَيْشاً عَلَى نَفْسِى ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ مِنْ بَنِى عَدى ابن كَعْب أَحَدٌ يَمْنَعُنِى ، وَقَدْ عَرَفَتْ قُرَيْش عَدَاوَتِى إيَّاهَا ، وَغِلْظَتِى عَلَيْهَا ، وَلَكِنِّى أَدُلّكَ عَلَى رَجُل أَعَزّ مِنِّى : عُثْمَان بْن عَفَّان) .



عُثْمَانُ (رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ) وَسَادَةُ مَكَّة

دَعَا النَّبِىّ ﷺ عُثْمَان بْن عَفَّان (رَضِىَ الله عنهُ) ، وَبَعَثَهُ إلَى أَبِى سُفْيَان وَأَشْرَافِ قُرَيْش ، خَرَجَ عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُ) وَمَعَهُ الرِّسَالَة ، فَلَقِيَهُ لِأَوَّلِ دُخُولِهِ مَكَّة أَبَانُ بن سَعِيد ، فَأَجَارَهُ الوَقْت الَّذِى يَفْرُغُ فِيهِ مِنْ رِسَالَتِهِ .

انْطَلَقَ عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُ) إلَى سَادَة قُرَيْش فَأَبْلَغَهُمْ الرِّسَالَة .

قَالُوا : يَا عُثْمَان إنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوف بِالْبَيْتِ فَطُفْ .

قَالَ عُثْمَانُ (رَضِىَ الله عنهُ) : مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوف رَسُولُ اللهِ ﷺ ، إنَّمَا جِئْنَا لِنَزُورَ البَيْتَ ، وَنُؤَدِّى نُسُكَ العِبَادَةِ عِنْدَهُ ، وَقَدْ جِئْنَا وَالهَدْى مَعَنَا ، فَإذَا نَحَرْنَاهُ رَجَعْنَا بِسَلَام .

وَأَجَابَتْ قُرَيْش بِأَنَّهَا أَقْسَمَتْ أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ مُحَمَّد هَذَا العَامَ عُنْوَة .

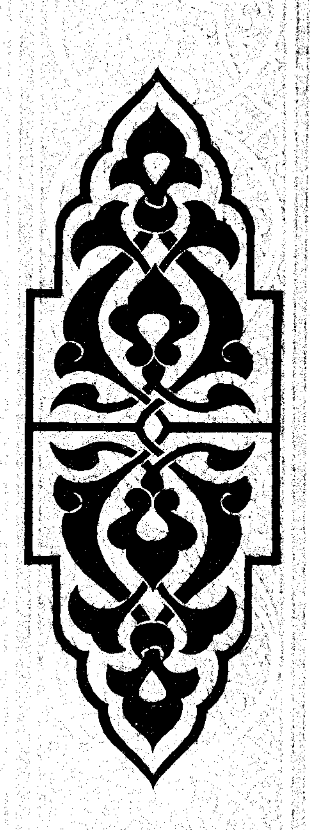
طَالَ الحَدِيثُ ، وَطَالَ احْتِبَاسُ عُثْمَان (رَضِيَ اللهُ عنهُ) ، وَتَرَامَى إِلَى المُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَان (رَضِيَ اللهُ عنهُ) قَدْ قُتِلَ ، وَدَخَلَ فِي رَوْعِ النَّبِيّ ﷺ أَنَّ قُرَيْشاً قَتَلَتْ عُثْمَان (رَضِيَ اللهُ عنهُ) ، فَغَدَرَتْ بِهِ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ ، فَقَالَ : « لَنْ نَبْرَحَ حَتَّى نُنَاجِزَ القَوْمَ » .

وَدَعَا أَصْحَابَهُ إِلَيْهِ ، وَقَدْ وَقَفَ تَحْتَ شَجَرَةٍ فِي هَذَا الوَادِي ، فَبَايَعُوهُ جَمِيعاً عَلَى أَلَّا يَفِرُّوا حَتَى المَوْتَ ، بَايَعُوهُ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ الَّتِي نَزَلَ فِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾[1] .

دَعَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ وَقَدْ ضَرَبَ بِشِمَالِهِ عَلَى يَمِينِهِ وَقَالَ : « إِنَّهُ ذَهَبَ فِي حَاجَةِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ وَحَاجَة رَسُولِهِ ﷺ »[2] .

خَافَتْ قُرَيْش مَغَبّة فِعْلِهِمْ إِنْ هُمْ أَقْبَلُوا عَلَى قَتْل عُثْمَان (رَضِيَ الله عنهُ) ، فَأَطْلَقُوا سَرَاحَهُ وَرَجَعَ إِلَى زَوْجِهِ أُمِّ كُلْثُوم (رَضِيَ الله عنهَا) وَإِلَى أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ ، وَلَمْ يُصَبْ بِشَيء ، وَكَانَتْ فَرحَة أُمِّ كُلْثُوم (رَضِيَ الله عنهَا) كَبِيرَة بِعَوْدَةِ زَوْجِهَا سَالِماً مُعَافًى ، وَزَادَ مِنْ فَرْحَتِهَا أَنْ عَرَفَتْ أَنَّ عُثْمَان (رَضِيَ الله عنهُ) عُدّ مِنْ



---

(١) سورة الفتح : الآية (١٨) .

(٢) بنحوه عند البزار بإسناد حسن (مجمع الزوائد ٩/٨٨) .

أَصْحَابِ بَيْعَةِ الرِّضْوَان وَإِنْ تَغَيَّبَ عَنْهَا ، إِذْ بَعَثَهُ النَّبِىّ ﷺ إِلَى مَكَّةَ فِى أَمْرٍ لَا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُ .

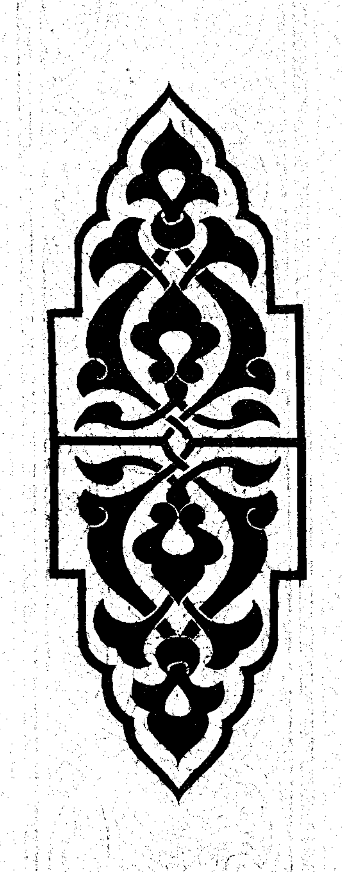
الأَيَّامُ السَّعِيدَة

عَاشَتْ أُمُّ كُلْثُوم فِى المَدِينَة أَسْعَدَ أَيَّامِهَا مَعَ عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهما) ، فَقَدْ تَمّ النَّصْرُ الأَعْظَم بفَتْحِ مَكَّةَ بَعْدَ عَامَيْنِ مِنْ صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ ، وَأَدْرَكَتْ هَذَا الفَتْح المُبِين .

★ ★ ★

وَرَأَتْ زَوْجَهَا عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُ) وَهُوَ يَشْتَرِى (بِئْر رُومة) بِالمَدِينَةِ ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام) : « مَنْ يَشْتَرِى رُومة ، فَيَجْعَلُهَا لِلْمُسْلِمِينَ يَضْرِب دَلْوَه فِى دَلائِهِمْ وَلَهُ بِهَا مَشْرَب فِى الجَنَّة ؟ » (١) .

فَأَتَى عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُ) اليَهُودِىّ فَسَاوَمَهُ بِهَا فَأَبَى أَنْ يَبِيعَهُ إِلَّا نَصْفَهَا باثْنَى عَشر أَلْفَ دِرْهَم ، فَجَعَلَهُ عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُ) لِلْمُسْلِمِينَ ، وَاتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَكُون لليَهُودِىّ يَوْم وَلِعُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُ) يَوْمٌ ، فَكَانَ إِذَا جَاءَ يَوْمُ عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُ) اسْتَقَى



---

(١) بنحوه عند ابن عساكر والطبرانى (كنز العمال ٣٦١٨٣) .

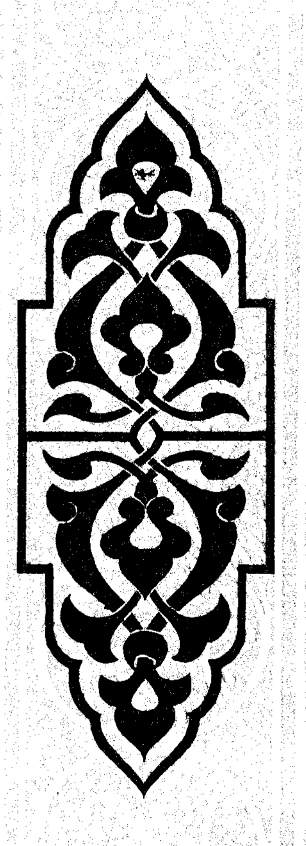
المُسْلِمُونَ مَا يَكْفِيهِمْ يَوْمَيْنِ ، فَلَمَّا رَأَى اليَهُودِىّ ذَلكَ قَالَ لعُثْمَانَ (رَضِىَ الله عنهُ) : أَفْسَدت عَلَىّ رُكْيَتِى ، فَاشْتَرِ النِّصْفَ الآخَر ، فَاشْتَرَاهُ بِثَمَانِيَةِ أَلْف دِرْهَم .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ يَزِيدُ فِى مَسْجِدِنَا ؟ » فَاشْتَرَى عُثْمَانُ (رَضِىَ الله عنهُ) مَوْضِعَ خَمْسِ سوارٍ فَزَادَهُ فِى المَسْجِدِ »[1] .

★ ★ ★

وَرَأَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ زَوْجَهَا العَظِيم عُثْمَان (رَضِىَ الله عَنهُمَا) وَهِىَ فِى أَتمّ سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ ، وَهُوَ يُجَهِّزُ جَيْشَ العُسْرَةِ ــ كَمَا سُمّى جَيْش تِلْكَ الغَزْوَةِ ــ بِتُسْعمائة وَخَمْسِينَ بَعِيراً ، وَأَتَمّ الأَلْف بِخَمْسِينَ فَرَساً .

★ ★ ★



---

(١) طبقات ابن سعد (٣٨/٨) .

ثُـمَّ رَحلَتْ أُمّ كُلْثُوم
(رَضِىَ اللَّـهُ عَنْهَـا)

لَمْ تَدُمْ حَيَاة أُمّ كُلْثُوم (رَضِىَ الله عنهَا) طَويلًا فِى المَدِينَةِ فِى بَيْتِ عُثْمَان بن عَفّان ، فَقَدْ مَرِضَتْ ، وَوَقَفَ عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُ) بِجَانِبِهَا ، حَتَّى فَاضَتْ رُوحُهَا فِى شَعْبَان سَنَة تِسْعٍ مِنَ الهِجْرَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُنْجِب ، وَدُفِنَتْ بِالمَدِينَةِ ، وَوَقَفَ عُثْمَان (رَضِىَ الله عنهُ) مَعَ أَبِيهَا ﷺ دَامِعى العَيْنَيْن ، وَأَحْدَاثُ الحَيَاة تَتَتَابَعُ لِيَرْفَعَ الله مَنْزِلَتَهُمْ عِنْدَهُ ، عِنْدَ المَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبّ العَالَمِينَ .

وَأَرَادَ النَّبِىّ ﷺ أَنْ يُطَيِّبَ خَاطِرَ عُثْمَان بن عَفَّان (رَضِىَ الله عنهُ) ، فَقَالَ لَهُ يُوَاسِيه : « يَا عُثْمَان ... لَوْ كَانَ لَنَا ثَالِثَة ... لَزَوَّجْنَاهَا لَكَ ... » [1] .



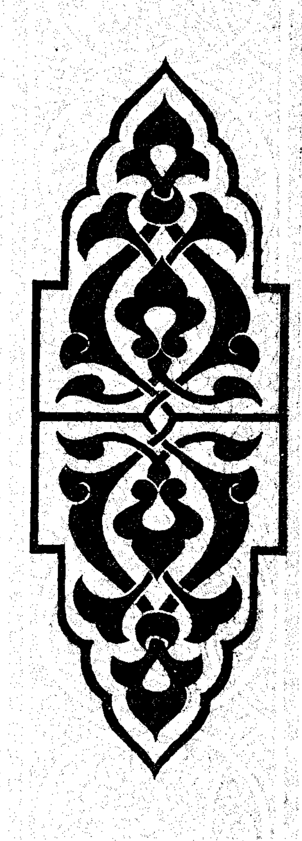
(١) رواه ابن سعد فى « الطبقات » (٤١/٣) ، وبنحوه بإسناد حسن عند الطبرانى (مجمع الزوائد ٨٢/٩) .

وإلى اللقاء بمشيئة الله مع ..

أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها

ذات النطاقين





دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس : ٤١٨٩٦٦٥
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦


وكيلنا في المملكة المغربية :
دار الاعتصام
للطباعة والنشر والتوزيع
الدحماني عبد الكريم
35 - 33 الشارع الملكي (الأحباس) - الدار البيضاء
الهاتف 30.42.85 - الفاكس 44.45.39



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٩٩٧/٧٦٢٠

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدي ـــ ١١٢٣١

